



على ضفاف الفرات الذي وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بأنه نهر من أنهار الجنة، تربع مدينة الرقة بسورها الأثري، وتاريخ جعلها يوماً من الأيام مدينة من مدن العلم، ومنارة من منارات السنة، حتى أنها حازت قصب السبق في أن تكون أول مدينة يفرد لها كتاب في من دخلها من أهل الحديث، ليكتب أحمد بن سعيد بن عبد الرحمن القشيري الحراني (ت: 334هـ) كتاباً سماه (تاريخ الرقة ومن نزلها من أصحاب رسول الله والتبعين والفقهاء والمحدثين) وما جاء تاريخ بغداد ودمشق ونيسابور مع جلالة تلك المدن إلا بعده وفي البلد التي كانت تحتفل بأهل الحديث أكثر من احتفالها بهارون الرشيد نفسه، وهي المدينة التي بناها جده المنصور، وسميت باسمه مدينة الرشيد لتكون نسخة عن العاصمة بغداد، حيث نقل ابن الجوزي عن كتاب النصوص على مراتب أهل الخصوص عن ابن شعبه المعصيحي، قال: قدم هارون الرشيد الرقة، فانجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك، وقطعت النعال، وارتقت الغبرة، فأشرف أم ولد أمير المؤمنين في برج الخشب، فلما رأت الناس قالت: ما هذا؟ قالوا لها: عالم خراسان قدم الرقة، يُقالُ له: عبد الله بن المبارك. قالت: هذا والله الملك، لا ملك هارون الرشيد، الذي لا يجمع الناس إلا بالشرد والأعوان.

في قرية من قرى هذه المدينة الهدائة الصغيرة ولد الشيخ سالم الحمود الحلو سنة 1946 م في قرية المغلة على الضفة الشامية من نهر الفرات، وعلى مسافة ليست بالبعيدة عن مكان موقعة صفين، حيث نشأ الشيخ مع مرض شلل الأطفال الذي رافقه حتى وفاته رحمة الله، هناك تأثر الشيخ سالم بالشيخ عبد الرحمن عبد الصمد الداعية الذي تم تهجيره من بلده طولكرم ليستقر به المقام في حلب ومن ثم يذهب للدراسة في المعهد العلمي بالرياض ثم ليكون بعدها من أوائل الملتحقين بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عند تأسيسها وحصل منها على الثانوية الشرعية ليعود إلى الرقة قبل تخرجه من البكالوريوس إلى قرية المغلة تحديداً في عام 1965 م في هذا الفترة كان الشيخ سالم يدرس الثانوية الشرعية في المدرسة

الشعبانية في حلب على يد أكابر علمائها ومنهم الشيخ نسيب الرفاعي صاحب الاختصار المعروف لتفسير ابن كثير، والذي كان له دور في بناء منهج الشيخ وتعلقه بالسنة النبوية. بعدها قرر الشيخ أن يذهب للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وكان ذلك عام 1967 ليكون أول طالب علم من مدينة الرقة يلتحق بهذا الصرح العظيم وليطلب علو الأسناد في العلم والسنة في مهبط الوحي على يد كبار علماء الأمة الإسلامية حيث كان المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية فيها:

1. عبد العزيز بن باز
2. محمد محمود الصواف
3. حسين محمد مخلوف
4. عبد الرزاق عفيفي
5. محمد بهجت البيطار
6. أبو الحسن الندوبي
7. أبو الأعلى المودودي
8. الطاهر بن عاشور
9. محمد ناصر الدين الألباني
10. محمد سالم البهاناني
11. محمد الأمين الشنقيطي
12. عبد المحسن العباد
13. محمد المبارك

كانت الجامعة في ذلك الوقت في ذروة عطائها، ويحدثني الشيخ سالم رحمه الله فيقول: عند وصولي للجامعة تم قبوله في كلية الشريعة لكن لكون المدرسة الشعبانية كانت في ذلك الوقت لا تتبع لوزارة التربية طلبت من الشيخ ابن باز رحمه الله أن أعيد دراسة الثانوية، وفعلا درست الثانوية، ثم تابعت في كلية الشريعة.

هناك نهل الشيخ العلم عن كبار علماء الأمة في الجامعة وفي المسجد النبوي الذي كان منارة من منارات العلم، ثم انقطع الشيخ رحمه الله عن الدراسة لفترة بسبب عدم قدرته على العودة إلى الجامعة عند قيام انقلاب حافظ الأسد عام 1970 م حتى تيسرت له العودة ومتابعة الدراسة ليتخرج الشيخ من الجامعة عام 1972 م ويعود لبلده ويخوض غمار العمل الدعوي على منهج الراسخين، فكان رحمه الله محل قبول أهل البلد ومرجعاً لهم في الفتوى، وانخرط في سلك التعليم فتنقل بين مدارس الرقة حتى انتهى به المقام في ثانوية منير حبيب التي كانت قريبة من منزله.

عرف الشيخ رحمه الله بسعة الصدر ودماثة الأخلاق والصبر على ما يتعرض له من أذى من بعض الجهلة، وهنا أذكر بعض المواقف التي سمعتها من الشيخ مباشرة حيث كان الشيخ يقول لي: إذا رأيت أحدا قد وقع في بدعة فحاول أن ترافق به، وأول ما يكون ذلك بأن لا تقول له هذه بدعة بل قل هذا خلاف السنة، فإن الاتهام أمر عزيز على النفس، وأن هم الداعية أن يأخذ بيده الناس إلى الحق وليس أن يثبت أنهم على الباطل، والعبرة بالثمرة.

يحدثني الشيخ مرة فيقول جاءنا إلى الحي جار جديد فكان يمر من أمامي ولا يسلم علي فأوقفته مرة فقلت هل آذيتك في شيء؟ قال: لا، قلت: هل تعرضت لأذى من أحد أفراد أسرتي؟ قال: لا، قلت: فلماذا لا تسلم عليًّا عندما تمرُّ من أمامي أو ترد السلام؟، فقال الجار: هل أنت وهابي؟ قلت له: هل أنت كافر؟ فغضب الرجل فقال: كيف تقول عنك كافر؟ أنا مسلم، قلت: وأنا مسلم ولا أرضى أن تقول عنك غير ذلك، فهذا الرجل ثم دعوه ليبيتي فأخبرني بما سمعه من بعض الناس عنّي، ثم كنا بعدها من أقرب الناس لبعضنا في الحي.

أول معرفتي بالشيخ رحمة الله كانت من خلال والدي – أطال الله عمره بالخير- الذي كانت معرفته به منذ تخرجه من الجامعة الإسلامية، ثم ومع بداية دراستي في كلية الهندسة في جامعة حلب تأثرت بدوروس مشايخ حلب أمثال الشيخ عبد الهادي بدلة، وأقبلت على قراءة الكتب الشرعية، ثم صرت أتردد على الشيخ سالم رحمة الله عند عودتي، وبعد سنوات أخبرت الشيخ برغبي في الذهاب للدراسة في الجامعة الإسلامية.

حاول الشيخ في بداية الأمر ثني عن الأمر، ثمًّ لِمَا رأى إصراري قرر مساعدتي وأرسلني للشيخ عبد القادر الأرناؤوط رحمة الله والشيخ عبد الله علوش أمده الله بالصحة والعافية للحصول على التزكيات، وفعلاً التحقت بعدها بالجامعة وبقيت على تواصل دائم مع الشيخ حتى تخرجت من الجامعة لأتشرف بأن أكون أول من تخرج منها بعده من أبناء الرقة، واستمرّ هذا التواصل مع الشيخ حتى قبل وفاته بيومين عن طريق بعض الإخوة الأفاضل.

عاني الشيخ رحمة الله من التشديد الأمني الذي كانت تفرضه عليه كل أجهزة المخابرات السورية حتى أنه أخبرني مرة أنهم وقعوا على تعهد لا يفتني لأحد حتى لزوجته، والشيخ كان يرى أن هذا النظام محارب لدين الله ولمذهب أهل السنة وأنه يسعى لنشر المذهب الرافضي الصفوبي في سوريا، حتى أنهم اتهموه مرة بتوزيع كتب التحذير من دين الشيعة.

كان الشيخ على علاقة خاصة قوية بالشيخ الألباني رحمة الله وكان يتبنى منهجه في الإصلاح حيث كان يرى أن هذه الأمة لن تنهض إلا بعودتها لدينها، وأن العودة لا تكون إلا من خلال منهج التصفيية والتربية وأنها لابد أن تخلص من البدعة والخرافة وتحيي سنة نبها صلٰى الله عليه وسلم وتتربي على الطريقة التي تربى عليها سلف الأمة من الصحابة والتابعين، عندها فقط ستجد الأمة طريق سلفها في قيادة البشرية وسيادة العالم. وقد أورث الشيخ سالم رحمة الله هذه الرؤية لكثير من طلابه وروّاد مجده و منهم كاتب هذه الأسطر، الأمر الذي جعلني لا أقدم شيئاً على العمل الدعوي.

عند بداية الغزو الأمريكي للعراق سعى النظام السوري للضغط على مشايخ سوريا إجمالاً ليصدروا فتاوى بوجوب الجهاد في سوريا، حيث قام بفتح الحدود وجهز الحافلات لإيصال الشباب إلى العراق من الساحات، وخاصة الشباب الجامعي. وأنكر أنني كنت حينها طالباً في جامعة حلب فطلبنا من الشيخ عبد الهادي بدلة فتوى بما يجب علينا تجاه هذا الحدث العظيم فتردد في ذلك، فتواصلنا مع الشيخ عبد القادر الأرناؤوط رحمة الله فأفتى بعدم الذهاب للعراق، ثم تواصلت مع الشيخ سالم رحمة الله فقال العراق محرقة لشباب أهل السنة، والنظام يريد منكم أن تذهبوا هناك حتى تخلوا له البلد فأنتم - ويقصد عنها طلاب الجامعة. - نخبة شباب أهل السنة فلا تتحققوا له مبتغاه ولا تقولوا أي أخباركم بهذه الفتوى. وفعلاً استجبنا لكلام العلماء وقتها ثم مضت السنون وبدأت الثورة السورية ليخرج الشباب السوري مطالبًا بالحرية والكرامة. في هذا الوقت كنت مازلت في المعقل حيث بقيت فيه لبضع سنين بدأت عند استقبال النظام لي في المطار بعد تخرجي من الجامعة الإسلامية، وعندما خرجت سألت الشيخ فقال لي: هذا نظام فاجر كافر لا قبل لنا به وسيقف العالم كلّه معه وسوف يسعى لاستغلال أي شعارات أو فتاوى فلا أرى إلزام الناس بفتاوي قد لا يطيقون عواقبها، وليس من مصلحة الناس أن يظهر الشباب الملتم على السطح وقد نفتي بأمر لا تطيقه الناس ونتحمل دماءهم بذلك، وفعلاً بقي هذا كلام الشيخ حتى يوم 15/3/2012م عندما قُتل الطفل علي البابنسي وكان أول شهيد في الرقة، كانت جنازة لا يعرف لها مثيل في تاريخ الرقة. خرجت يومها مع من خرج في الجنازة وكان الناس يهتفون بالحرية والكرامة وأنهم لن يضيعوا دم الشهيد، وكانت المفاجأة أنني رأيت الشيخ رحمة الله حينها في المقبرة قد جاء مع الجنازة في سيارة الطبيب عبد العزيز الصالح وذلك لعدم قدرته على المشي، عرفت يومها الموقف الحقيقي للشيخ، ثم تتابعت أيام الثورة وتفرقنا أهدافها وتم سرقتها من قبل المناهج التي عبرت الحدود. هنا آثر الشيخ رحمة الله السكوت ولزم بيته حتى سيطرت داعش على الرقة ليلاقى منها الاضطهاد الذي كان يلاقاه

من مخابرات الأسد واستدعاءات شبه يومية، حتى قرر أن يخرج من المدينة إلى قريته، ليأتي التحالف الدولي ويقصف بيته في المدينة، بعدها عاد الشّيخ لما تبقى من بيته ليصلّحه ويسكن فيه، وتبداً رحلة المرض الذي لم يمنع قوات قسد من اعتقاله لفترة من الزمن وهو في طريقه للعلاج، حتى لقي ربه تاركاً وراءه إرثاً دعوياً وعدهاً كبيراً من الدعاة الذين أرجو أن يكونوا في ميزان أعماله عند الله، يوفون العهد ويكملون الطريق وشعارهم (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً).

المصادر: